



حوار مع المؤرخ الكردي د. كمال مظهر أحمد حول:

## الشخصية الكردية بين الهوية التاريخية والسمات المرحلية

إجراه: فارس كمال عمر نظمي

(جوناثان راندل) في كتابه (أمة في شقاق) ١٩٩٧ أرض كردستان بأنها : ((أرض الألف ثورة والألف حسرة)). والغريب في هذه المفارقة التاريخية أن الكرد ليسوا من الشعوب المرحلة من مناطق أخرى إلى كردستان الحالية، بل أنهم سكنوا بلادهم الحالية منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، وأقاموا فيها دولاً كردية قديمة مختلفة، سميت تارة باسم المنطقة الجغرافية وتارة باسم القبائل التي أسست تلك الدول.

إن تحرر أي شعب من قيود الاستعباد والتخلف والوصاية، هو عملية تاريخية لها دينامياتها السياسية والسيكولوجية على حد سواء. فشعور الفرد بانتمائه القومي يمكن أن يغدو واحداً من أهم أوجه هويته النفسية، بل أن شعوباً كثيرة اختزلت هويتها الحضارية

نجد في عالم اليوم، وفي حالات ليست قليلة، دولاً تولد من تجمع قبائل انحدرت لتوها من الغابات أو الصحاري، ليعترف العالم باستقلالها وسيادتها، ويصبح لها علم وسفارات ومقعد دائم في الأمم المتحدة؛ في الوقت الذي فيه قومية تاريخية اسمها (الكردية) تعدادها يقارب (٣٥) مليون نسمة، تشغل وطيناً تاريخياً اسمه (كردستان) تتراوح مساحته بين (٤٠٠ - ٤٨٠) ألف كيلومتر مربع، موزعة بين جغرافيا العراق وتركيا وإيران وسوريا وبعض الجمهوريات السوفييتية السابقة، ما تزال في مرحلة الكفاح الشاق لاثبات هويتها التاريخية والقومية والثقافية في أذهان الشعوب المجاورة المستعبدة لها، بوصفه (أي هذا الكفاح) مقدمة لنيل حقوقها السياسية والسيادية. إذ يصف

وبالتوازي مع ضغط هذه الأقوام الى حجب هذا الشعب عن إشعاعات الحضارات الخارجية... وأسهمت في إكساب العقل الكردي المزيد من التقوقع...مما جعله مغترباً عن محيطه)).

ولأجل مناقشة هذه الأفكار، وتحديد الكيفية التي مارست فيها التطورات التاريخية (سلباً أو إيجاباً) فعلها التكويني الموضوعي في السيكلوجيا الكردية، ارتأينا أن نتوجه إلى أحد أعمدة الثقافة العلمية التنويرية في العراق، المؤرخ والمفكر الكردي الأستاذ الدكتور (كمال مظهر أحمد).

ولد الدكتور كمال في السليمانية في العام ١٩٢٧. وهو أول دارس من الشرق الأوسط نال شهادة دكتوراه العلوم ( ناووك) السوفييتية في العام ١٩٦٩. له عشرات المؤلفات في تأريخ العراق والکرد، نشرت باللغات العربية والكردية والروسية، من بينها : ((كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى)) و ((الطبقة العاملة العراقية : التكون وبدايات التحرك)) و ((صفحات من تأريخ العراق المعاصر)) وآخرها ((كروك وتوابعها: حكم التاريخ والضمير) الصادر في العام ٢٠٠٤. ولتلخيص المسيرة الفكرية لهذا المفكر الملتزم بحرفيات المنهج الأكاديمي ذي النزعة التقدمية الإنسانية الصلبة، نقتبس من القاضي والباحث (زهير كاظم عبود) هذه الكلمات: ((كمال مظهر أحمد...استطاع أن يؤسس مدرسة تاريخية تضم كل الأصوات الداعية لاعتماد الحقيقة الموضوعية في الكتابة التاريخية، اعتماد المنطق والضمير في التحليل التاريخي... اتسمت كتاباته وتحليلاته بالإنصاف وعدم الانسياق وراء رغبة السلطان ولا فتاوى السلطان، ولم تهتز له شعرة في إصراره على أن يقول الحقيقة ويعلمها ويصر

والتاريخية في مرحلة من مراحل صيرورتها وانعتاقها، إلى عنوانها القومي ذي الجذر العرقي، وهذا ما يمكن أن نصف به حال الشعب الكردي اليوم، لا سيما في العراق. ولكن اللافت للنظر أن الإنسان الكردي، في الوقت الذي يقطر الدم من ذاكرته السياسية، إلا أن شخصيته حافظت على مجموعة من الخصائص النفسية ذات الطابع الإنساني – الأخلاقي المتميز.

فتمسية ( الكرد) اشتقت لغوياً من وفرة الشجاعة وشدة الحماسة والغيرة، طبقاً ل((الموسوعة التاريخية الكردية)) لمؤلفها (شرف خان البدليسي). ويتفق العديد من المؤرخين والمستشرقين على تمجيد الشخصية الكردية. إذ يكتب العلامة الهولندي (مالبارد) عن صمود الكرد وثباتهم: ((الحقيقة لم نر مدينة أو قصراً أو جبلاً استطاع أن يصمد خمسين قرناً من الزمن مثلما صمدت أربيل)). ويشخص الكاتب الروسي (باسيل نكتين) عادات الكرد وأخلاقهم بقوله : ((يمتاز الكردي باستقامته التي لا تتزعزع، وبحفاظه على العهد، وعطفه النبيل على أقاربه، وسلوكه الإنساني. فطبائع الكرد لم تتغير منذ ألف عام قبل المسيح ولحد الآن...انهم شعب قوي ومهوب)). ومع ذلك نجد بين الكتاب الكرد ذوي النظرة النقدية غير المتساهلة تجاه شعبهم، من يحاول تقصي بعض العوامل الجغرافية والاجتماعية التي راكمت رواسب سلبية في الشخصية الكردية، إذ يكتب (خالص مسور) في تحليله لفضاءات العقل الكردي: (( البيئة الجبلية، وان كانت قد حافظت على الحالة الكردية كشعب، ومنعته من الذوبان والانحلال ضمن واقع وخصوصيات القوميات الأخرى، وهذا هو الجانب الإيجابي في الحالة، إلا أنها ومن جانب آخر أدت

عليها...)). وكان سؤالنا الأول هو:

+ هل يمكن القول أن هناك شخصية كردية ذات سمات نفسية تاريخية محددة يشترك فيها أغلب الكرد سواء كانوا في العراق أو إيران أو تركيا أو سوريا أو الجمهوريات السوفييتية السابقة؟ أم أن هناك شخصيات كردية متنوعة تبعاً لهذا التنوع الجغرافي الذي وجد الأكراد أنفسهم فيه؟

لا أعتقد بوجود شعب واحد في العالم لا يحمل أبناؤه سمات نفسية مشتركة بغض النظر عن إفرزات جميع الحواجز، طبيعية كانت أم مصطنعة. ينطبق هذا القول حتى على شعوب الولايات المتحدة الأمريكية التي انقطعت جذورها عن الوطن الأم على مدى مئات السنين، فأنت طبع ملايين الألمان هناك أقرب إلى طبع بني جلدتهم في وطنهم الأصلي البعيد، بكثير من طبع مواطنيهم القريبين منهم من إنجليز وروس وبولونيين ويابانيين وغيرهم من أبناء عشرات الشعوب التي هاجرت إلى أمريكا المعزولة عن قارتي أوروبا وآسيا. شخصياً احتكيت بصورة مباشرة بأذربيجانيين وأرمن الاتحاد السوفييتي وإخوانهم في إيران والعراق، ولم أكن أتوقع بأن الفكر الاشتراكي لم يهز، برغم قوة تأثيره، القيم النفسية المشتركة بين الطرفين، مع العلم أن أبناء الشعبين بدءوا يعيشون حالتين مختلفتين بصورة جذرية على مدى حوالي قرن من الزمن منذ عهد القياصرة، وبلغ الانعزال بينهما في ظل ما عرف بالستار الحديدي في عهد ستالين ذروته.

حال الكورد حال هؤلاء وغيرهم، بل ربما أنهم عاشوا وضعاً أفضل إلى حد ما، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار حقيقة مهمة في هذا المضمار، خلاصتها

أن حدوداً حقيقية فاصلة بين أجزاء الشعب الكردي المختلفة لم تكن موجودة على أرض الواقع منذ أن ظهر الكورد في وطنهم كردستان قبل آلاف السنين. وظل هذا الواقع يحتفظ بقوته حتى بعد ظهور الدولتين المتصارعتين العثمانية والصفوية، ولم يفض صراعهما المستمر على مدى قرون طوال إلى إيجاد حل لمشكلة الحدود بين تركيا وإيران إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. ولكن حتى ذلك الحل لم يعدو عن كونه حلاً قانونياً، لذا لم يكن بوسعها أن يحول عملياً دون استمرار التداخل الاقتصادي والاجتماعي بين أقسام الشعب الكردي، خصوصاً في المناطق الحدودية، فأن العشرات من العشائر الكردية التي توزعت على دول مختلفة ظلت تحتفظ بعلاقاتها، ويحمل أفرادها في الغالب أكثر من جنسية، وتتوزع مشاتيها ومصائفها على طرفي الحدود، وتحول التهريب بالتدريج إلى مهنة رائجة في صفوفها. لذا لا غرو أن لا يشعر المرء، مثلاً، بأدنى فرق بين نفسية أحد أبناء عشيرة الجاف في منطقة (كه لار) المجاورة لكركوك مع نظيره في منطقة (جوانرود) داخل الحدود الإيرانية. أضف إلى ذلك أن ظروفها خاصة وعامة أدت إلى أن يتخلف الكرد عن الركب الحضاري، الأمر الذي تحول موضوعياً إلى عامل مهم يحول دون اختلاطهم الواسع بغيرهم، مما حافظ على نقاوتهم إلى حد كبير، فأن مفردات العربية مثلاً وجدت طريقها إلى لغتهم بصعوبة أكبر من اللغة الفارسية أو التركية.

لا أؤمن شخصياً بوجود فروق جوهرية بين طبائع البشر والشعوب. فباستثناء الشواذ يميل الإنسان عادة إلى الخير إلا إذا حوصر في لقمة عيشه، أو إذا تعرض إلى ما يمس قيمه وموقعه، أو إذا وقع تحت تأثير

في السمات النفسية لجميع شعوب المنطقة بتأثير قيم الحضارة الأوربية الحديثة التي انتقلت إليها جنباً الى جنب البضاعة النوعية المستوردة من الغرب. يضاف الى ذلك بالنسبة للكورد عامل آخر تجسد في تفاقم الاضطهاد القومي ومحاولات الأوساط الحاكمة الالتفاف على طموحاتهم وقيمهم، مما زاد من حذرهم وشكهم المشروعين. ولقد تجاوز النظام العراقي السابق جميع الأنظمة الأخرى في محاولاته المنهجية الماكرة للنيل من السمات النفسية الإيجابية الموروثة، والراسخة في أعماق عوام الكورد وخواصهم، الأمر الذي كان يهدف الى زعزعة ثقة الكردي بنفسه ليرنو تحت تأثير ذلك الى جنسية ((أفضل وأرقى)) من جنسيته. وكنت حصلتُ بفضل بعض الخيرين على كتب خاصة أعدتها بصورة سرية شعبة الاستخبارات النفسية التابعة لرئاسة الجمهورية ومديرية الأمن العامة في النظام السابق، منها كتاب يقع في اثنتين وأربعين ومائة صفحة، ويحمل عنوان ((الشخصية اليزيدية)). يحمل الفصل السادس والأخير من هذا الكتاب عنوان ((السمات العامة للشخصية اليزيدية))، تحاول مادته بوضوح ترسيخ الاعتقاد بأن شخصية اليزيدي الكردي ((شخصية مقهورة ومتوقفة ومرتابة ومكبوتة ومذلة ومنقادة وقلقة ومهزوزة ومادية)). ومنها أيضاً كراس ((سري للغاية ومحدود)) عنوانه ((ملاحظات حول عمل الحزب الشيوعي العراقي في المنطقة الشمالية)). يقع الكراس في سبع وعشرين صفحة جلها مكرس للحيلولة دون اتصال الكوادر الشيوعية بالجماهير الكردية المهجرة قسراً من قراها خشية أن يعرفوا مهمات ألام النظام الذين كانوا يمارسون عملية غسل دماغ منظمة مع تلك

فكر متطرف غير عقلاني يعرض بضاعته الفاسدة بأسلوب مغرٍ . وخير أنموذج يخطر على بالي هو أن الكثير من الطائشين والمتطرفين الآن كان أبأؤهم من خيرة الوطنيين العراقيين في أواخر العهد الملكي والمرحلة المبكرة التي أتبعث ثورة الرابع عشر من تموز لأنهم كانوا متأثرين يوم ذاك بأفكار قوى الخير العاملة على ساحة العراق السياسية.

+ إذن، ما دمت ترى أن هناك سمات نفسية تاريخية يشترك فيها أغلب الكرد، فما هي أبرز هذه السمات؟

لا أريد أن أبدي رأبي في السمات الشخصية للكرد برغم اعترازي اللامحدود بكوني واحداً منهم. لكن غير الكرد، بمن فيهم الرحالة الأجانب، يعطون أوصافاً للكورد فريدة في بابها. منها احترام المرأة والوفاء والطيبة والبساطة والصدق والجرأة وغيرها من الصفات التي لم يكن بوسع النظام السابق، برغم كل أساليبه المتلوية لتشويه أبعادها، بحيث بقيت صورة الكردي تمثل صورة إيجابية مثالية في العقل الباطن للأكثرية الساحقة من عرب العراق وغيرهم. وفي هذا السياق ألجأ الى نموذج بسيط في شكله، عظيم في محتواه، وهو أن أي متبضع في الشورجة يميل الى التاجر أو الجمال الكردي أكثر بكثير مما يميل الى غيره.

+ يوجد انطباع متداول بين الكرد أنفسهم، أن الأجيال الكردية الجديدة تختلف في تركيبتها النفسية، بنسبة ما عن الأجيال السابقة. كيف تنظر الى هذه المسألة؟

بعد اندماج المنطقة بالأسواق الرأسمالية العالمية منذ أواسط القرن التاسع عشر، طرأ بعض التغيير

حماية الذات. ومن خلال متابعتي الشخصية للعديد من الظواهر أستطيع أن أؤكد بأن التعصب الكردي لا يؤلف ظاهرة متفاقمة برغم أن شوفيين الفرنسي لا يستحق أن يكون سوى تلميذ متواضع في مدرسة علي حسن المجيد العراقي.

+ ولكن هناك منظور في علم النفس السياسي يقول: ((إن الأمم التي تُقهر في مرحلة تاريخية معينة، غالباً ما تلجأ الى التعويض النفسي عن طريق الانتقام من مضطهديها في مراحل لاحقة)). فهل تتوقع أن ينقلب الكورد في المستقبل القريب أو البعيد، بعد أن ينالوا كيانهم الذاتي عبر الفيدرالية في العراق، من أمة مظلومة إلى أمة ظالمة تسعى للنار من أبناء القوميات المحيطة بها؟

كنت أتمنى أن توجه مثل هذا السؤال إلى باحث غير كردي، لا أريد مع ذلك، أن أتهرب من الجواب. الكورد أيضاً مثل غيرهم، من الممكن أن يخطئوا، كما من الممكن أن يصيبوا، الأمران اللذان يعتمدان على حكمة من يقودهم ويقود غيرهم من جيرانهم، وعلى النخبة المنتمية إلى جميع الأطراف، نحن بحاجة إلى عقل ومشاعر (الجواهري) و (معين بسيسو) و (عزيز نسين) و (إسماعيل بيشكجي) و (ايرج) و (خسرو روزبه) و (كوران) و (ليلي زانا) الذين رصعوا معاً إكليل الأخوة والصفاء بدرر فريدة. كم أتمنى أن يحذو الجميع حذو الشعب الأرمني العريق. نحن ظلمناهم واشتركنا في مذابحهم غير الإنسانية بتحريض من قوى الظلام من أعوان السلطان عبد الحميد الثاني والاتحاديين فيما بعد. إلا أنهم باستثناء حالات نادرة، آمنوا بمبدأ العفو عند المقدرة، فتعاملوا مع كرد أرمينيا معاملة طافحة بمشاعر الكرم والأخوة. رأيت

الجماهير خدمة لسياسة التعريب المقيتة. وفي السياق نفسه أتذكر جيداً كيف منعت السلطة في أواخر السبعينيات وبدايات الثمانينيات من القرن الماضي تداول بعض مجلات الإغواء والإغراء العربية في جميع أنحاء العراق باستثناء المنطقة الكردية بحجة كونها منطقة سياحية، منها مجلة ((الشبكة)) اللبنانية على ما أتذكر.

+ يحذر المختصون بالسيكولوجيا الاجتماعية من أن المغالاة في ((الاعتزاز القومي)) يمكن أن تؤدي في ظروف معينة الى نوع من ((الشوفينية)). أين تضع الشخصية الكردية من هذين المفهومين في الوقت الحاضر، وهي تستعد لمرحلة تاريخية جديدة من مراحل نيل حقوقها السياسية والثقافية والإنسانية؟

بالعكس تماماً، فهناك حد سميك فاصل بين مفهومي ((الاعتزاز القومي)) و ((الشوفينية)). الأول أمر مشروع بالنسبة للجميع، ولا كبرياء عندي يضاهاي الكبرياء القومي، خصوصاً إذا كنتُ منتمياً إلى خندق المظلومين الذين لا يمكن أن يكونوا شوفيين أصلاً. فالشوفينية مصطلح ظهر أيام حروب نابليون بونابرت وحملاته التوسعية التي كان يشنها بحجة نشر ميادى الثورة الفرنسية، وكان الضابط (شوفيين) أشد المتحمسين للنزعة البونابرتية هذه ليتحول اسمه الى مصطلح يطلق على غلاة القوميون المتعصبين المنتمين للقومية الكبيرة أو الحاكمة، ممن يطمعون في أرض الغير بحجج واهية تبلغ حد تزوير حقائق التاريخ. وتولد الشوفينية عادة التعصب القومي في صفوف الطرف الآخر، وهو أيضاً توجه غير إيجابي سوى في كونه رد فعل مشروع على عمل غير مشروع ليتحول بحكم ذلك الى احدى أهم أدوات

والمساواة، فتطوعوا للدفاع عن مكاسب الثورة التي تكالبت عليها القوى الرجعية في الداخل، كما في الخارج، فتوجهوا من كل حذب وصوب الى العاصمة باريس وهم يحملون إيماناً عميقاً وسلاحاً بسيطاً حيث أبدوا آيات البطولة في ميادين القتال، خصوصاً ضد القوى الخارجية التي كانت ترنو الى وأد الثورة في مهدها. وهؤلاء الفيديراليون هم أول من أنشدوا نشيد الثورة الفرنسية المعروف بالمارسيليز. ولم يؤد فيديراليو إيطاليا دوراً أقل شأناً في الحركة الوطنية العامة في مطلع العقد الثالث من القرن التاسع عشر، مما ساعد على تمهيد الطريق لتحقيق الوحدة الإيطالية فيما بعد.

ومن المفيد أن نشير بالمناسبة إلى أن جميع المتعصبين تبنا مواقف نقيضه تماماً للمواقف التي تبناها الفيديراليون في التاريخ الحديث والمعاصر، وخير مثال نسوقه هنا لتوضيح هذه الحقيقة هو موقف عدد غير قليل من قادة الثورة الفرنسية الذين تخلوا بسرعة عن قيم ثورتهم الكبرى، فغدوا يرون أن من حقهم حكم العالم بأسره بحجة نشر مبادئ الثورة، وبلغ هذا التوجه ذروته في عهد نابليون بونابرت. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن جميع حملة النزعة البونابرتية في السيطرة على الغير يقفون في كل زمان ومكان ضد الفيديرالية القومية، بدءاً بشخص نابليون نفسه الذي تبني موقفاً غير ودي من فيديراليي بلاده المتفتحين، مع العلم أنه كان بأمر الحاجة إلى تأييدهم ومؤازرتهم.

تثبت تجارب التاريخ أن الفيديرالية تبعد أصلاً فكرة الانفصال شرط أن تكون هدفاً ثابتاً لا مناورة تستهدف الاحتواء. وكل تجارب التاريخ تثبت ذلك، وتبين أن أقوى الدول في العالم هي الدول

بأم عيني نعيم كرد بلدة ( الكه ز ) التي تقع على مبعده أميال قليلة من العاصمة يريفان.

+ تتباين المواقف في الساحة العراقية اليوم من موضوعة ((الفيديرالية)) وتأثيراتها المحتملة على مستقبل العراق. وقبل الخوض في الإفرازات النفسية للفيديرالية، وما اذا كانت تعد حلاً يحفظ للشخصية الكردية هويتها التاريخية، أود أن أسأل عن جذورها التاريخية؟

تعدّ الفيديرالية تاريخياً من أفضل ما أنتجه الفكر الإنساني النير بهدف تجاوز مشكلات اجتماعية مستعصية. أعتقد أن الذين يعادون الفيديرالية لا يفقهون معناها ومغزاها وموقعها الإيجابي في التاريخ. ومن أجل التوضيح أقتبس خلاصة ما ذكرته بهذا الخصوص في كراس لي صدر قبل أشهر بعنوان ((آراء في الفيديرالية)). إن كلمة الفيديرالية مقتبسة في الأصل من كلمة لاتينية قديمة (Foedus) التي تعني الاتحاد نصاً. وكان هذا المصطلح يطلق في عهد الإمبراطورية الرومانية، التي ظهرت قبل الميلاد بعدة قرون، على العشائر الحدودية التي كانت تدافع عن تخوم الدولة وتحميها. من هنا فأنا المصطلح ينطوي على مفهوم إيجابي منذ ظهوره قبل أكثر من ألفي سنة.

وهكذا كان الأمر أيضاً في التاريخ الحديث والمعاصر، وهو ما يهمننا أكثر من غيره، فأنا جميع الذين آمنوا بالفيديرالية وناضلوا من أجلها في تلك المرحلة كانوا ينتمون إلى خندق الوطنية، والى المظلومين تحديداً، منهم، على سبيل المثال، الفيديراليون الفرنسيون الذين كانوا ينتمون الى المقاطعات والأطراف ممن علقوا آمالاً كبيرة على شعارات الثورة الفرنسية عن الحرية والإخاء

في المناطق العربية من العراق، يعتقد أن الفيدرالية ستكسر ( من الناحية النفسية) انزعال الكرد عن بقية قوميات العراق، وما سيترتب على ذلك من نتائج سلبية لاحقاً على وحدة البلاد. كيف ترد على هذا الرأي، بالرجوع إلى الحقائق التاريخية؟

ظهرت أفضل الفيدراليات على أساس الاختيار الحر الذي يحتوي حق تقرير المصير دون أن يلغيه. لكن الملفت للنظر أن أحداً لم يلجأ إلى ذلك الحق سوى الفنلنديين الذين انطوى موقفهم على رد فعل مشروع كان مبعثه الاتحاد القسري الذي فرضه عليهم القيصر الروسي. وعلى هذا الأساس لم تجن الدول الفيدرالية في العالم، وبشتى أشكالها، سوى الخير من نظامها، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وسويسرا والبرازيل وأستراليا والهند وغيرها لأنها حققت المساواة المطلقة بين رعاياها بغض النظر عن جميع انتماءاتهم. فأن (الريتورومان) الذين يؤلفون أقل من (٨٪) من مجموع السكان في سويسرا يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها الألمان الذين يؤلفون حوالي (٧٠٪) من مجموع السكان، بما في ذلك حق تبوء أي منصب رئاسي أو وزاري أو دبلوماسي. ولهذا السبب، لا غيره، لم يستطع الزعيم الفاشي (موسوليني) منذ العام ١٩٢٢، ولا الزعيم النازي (هتلر) منذ العام ١٩٣٢ أن يؤثر على وحدة الألمان والفرنسيين والإيطاليين والريتورومان الذين بدأ أبناء جلدتهم خارج سويسرا يأكل بعضهم البعض طوال سنوات ست من عمر الحرب العالمية الثانية. بل وأكثر من ذلك أن خلفية هذه المساواة جعلت أذهان القوميات السويسرية الأربع مستعدة للتحويل إلى نظام فيدرالي في القرن التاسع عشر بعد أن عاشت بلادها نظاماً كونفيدرالياً على

الفيدرالية. فلم تظهر الفيدرالية كفكر سياسي إلا بوصفها استجابة ضرورية لحاجات المجتمع، وفي ضوء خصوصياته المحددة، وهي تحولت إلى أساس قوي لتعزيز مقومات الدولة حينما طبقت بصورة صحيحة. وفي الواقع لم يستجب لهذا الفكر فقط أولئك الذين تخلفوا عن الركب الحضاري لأكثر من سبب، فجلبوا الولايات لشعوبهم بسبب ذلك. وخير أنموذج أسوقه في هذا المجال هو الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، فأن نظامها على أرض الواقع كان في أوج قوته يمثل أشبه ما يكون بنظام فيدرالي، بل وحتى كونفدرالي غير معلن، فأن السلاطين الأوائل لم يتدخلوا قطعاً في شؤون الإمارات غير التركية التي ظلت شبه مستقلة، لا تؤدي تجاه الباب العالي سوى ما عليها من التزامات مالية وعسكرية دون ضغط أو إكراه، ودون أي تدخل مباشر، أو حتى غير مباشر في شؤون حياة أهلها الخاصة والعامة، في تقاليدهم ولغاتهم، أو أرض أجدادهم. ولذلك لم يفكر أحد يوم ذاك بالانفصال، حتى أن الأرمن كانوا يؤلفون يومذاك عنصر بناء لا هدم رغم انتمائهم الديني المسيحي، وموروثهم الحضاري. وهذا يعني أن التنوع الأثني والديني والمذهبي تحول إلى مصدر خير، وعامل ازدهار للدولة بمقياس الزمان والمكان. غير أنه ما أن انقلبت الآية في زمن السلاطين المتأخرين، وخصوصاً في عهد الاتحاديين، حتى تحولت القوميات غير التركية، وشجونها الكثيرة إلى عبء ثقيل على كاهل الدولة، وإلى عامل فاعل في نخر أسسها، وتحويلها إلى ((الرجل المريض)) الذي تخبط في اختيار الدواء فأدركه الموت غير مأسوف عليه.

+ ومع ذلك، توجد مؤشرات على وجود رأي عام

في المؤسسات العلمية التي كنت أتعامل معها في (باكو) عاصمة أذربيجان السوفيتية، ولا في (يريفان) عاصمة أرمينيا السوفيتية أي وجود روسي. فعلى سبيل المثال لم أجد لا في معهد شعوب الشرقين الأدنى والأوسط التابع لأكاديمية علوم أذربيجان في باكو، ولا في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية علوم أرمينيا في يريفان طالباً، أو أستاذاً روسياً واحداً، وكذلك في المكتبات العلمية الكثيرة التي كنت أتردد عليها باستمرار، بينما كان العشرات من أبناء القوميات غير الروسية يعملون ويدرسون في نظيرات تلك المؤسسات في موسكو ولينينغراد وغيرهما من كبريات المدن الروسية. ولن أنسى تواضع وبساطة (رينا) طالبة الدراسات العليا في معهد شعوب الشرقين الأدنى والأوسط بباكو، وتعاملها الطبيعي جداً، بل المشوب بقدر واضح من الخجل، مع الجميع، وتنقلها مع زميلاتها الأخريات مع العلم أنها كانت ابنة السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذربيجاني (آخندوف).

+ من المعروف في حقل دراسات الإدراك الاجتماعي أن الأفراد المنتمين إلى أي جماعة بشرية سواء كانت سياسية أو قومية أو عرقية أو ثقافية، لا بد أن يحملوا في أذهانهم (( صورة نمطية )) عن السمات الشخصية لأفراد الجماعات الأخرى. ولهذا الصور النمطية تأثير مباشر في تحديد طبيعة العلاقات بين هذه الجماعات سلباً أو إيجاباً. ما هي برأيك خصائص الصورة النمطية التي يحملها كل من الكردي والعربي عن بعضهما في عراق اليوم؟ وهل تغيرت هذه الصورة قياساً بما كانت عليه في الحقب السياسية السابقة؟ وما هي طبيعة الاتفاق المستقبلية للعلاقة بين الكرد والعرب انطلاقاً من

مدى حوالي ستة قرون قبل ذلك التاريخ. إن الإفرازات الإيجابية لمثل هذا التعامل العقلاني لا تعد ولا تحصى، ويكفي أن نقول بهذا الصدد أن من الصعب أن يصدق أحد اليوم أن السويسري الذي يعد أفضل أنموذج إنساني في عالمنا المعاصر على جميع الصعد، ويتمتع باستقرار نفسي قل نظيره، كان أجداده يمثلون أسوأ أنموذج على صعيد القارة الأوروبية في العصر الوسيط، حتى أنهم تحولوا إلى مصدر رئيس لتزويد جيوش المرتزقة الأوروبية بالأوباش الذين أدوا نفس الدور الذي أداه ((ججوش كردستان)) على مدى سنوات طوال.

أود أن أشير أيضاً إلى حالة فيدرالية عشت في أجوائها على مدى عقد واحد من الزمن، وأقصد بها الفيدرالية السوفيتية. ان من أفضل ما حققته ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917 لشعوب الإمبراطورية الروسية هو تحويل نظام القياصرة المستبدين إلى اتحاد كونفدرالي في البداية، ومن ثم إلى اتحاد فيدرالي اختياري منذ العام 1922. لاحظت، مثل جميع زملائي العراقيين الآخرين الدارسين هناك، العديد من الجوانب الإيجابية في الفيدرالية السوفيتية، فلم نحس بأي نوع من التعالي القومي الشوفيني لدى الأكثرية الروسية. وكان لكل جمهورية من الجمهوريات الخمس عشرة علمها الخاص يرفع جنباً إلى جنب علم الدولة المركزي فوق جميع المؤسسات الرسمية دون استثناء. كما أن اسم العملة الروسية كان مطبوعاً على الروبل بخمس عشرة لغة، بضمنها، على سبيل المثال، منات باللغة الأذربيجانية. وكان التعامل مع اللغات القومية يجري على قدم المساواة مع اللغة الروسية في جميع ميادين الحياة اليومية. ولم ألاحظ

هوسة شعبية معروفة وردت بصياغتين ((ثلاثين  
الجنة لهادينا وثلاث الجنة لكاك أحمد وأحفاده))،  
و ((ثلاثين الجنة لهادينا وثلاث الجنة للشيخ محمود  
وأكراده)).

وقد دخلت هذه العلاقات مرحلة جديدة مع انتهاء  
الحرب العالمية الأولى وفرض الاحتلال ثم الانتداب على  
العراق. وبحسب وثائق وزارتي المستعمرات والخارجية  
البريطانيتين، وبشهادة مؤلفين إنجليز مطلعين من  
أمثال (لونكريك) و (ادموندز) كان ((الطائر الشؤم))  
الشيخ محمود، حسب وصف البريطانيين له، على  
اتصال مباشر برجال الحوزة في النجف وكربلاء،  
وبعد من رؤساء العشائر العربية المعروفين.  
وتحدثت إحدى الوثائق عن استقبال زعماء العبيد  
والبيات للشيخ محمود بعد عودته من منفاه في الهند  
سنة ١٩٢٢. وتحدث وثيقة خاصة أعدت لشخص الملك  
فيصل الأول في كانون الثاني ١٩٢٣ عن اجتماع مهم  
عقدته الشيخ محمود مع (٤٣) رئيساً عشائرياً لوضع  
خطة لنظامه، كان اثنان منهم من رؤساء العشائر  
العربية في الحويجة، الأول رئيس فخذ البوعلي  
فرحان الروحان، والثاني هو سيد عبد القادر اغا من  
ملحة. ومن المناسب أن أشير هنا الى عبارة وردت في  
نص القسم الذي كان على كل من يمنح العضوية في  
صفوف الحزب الشيوعي العراقي في خمسينيات القرن  
الماضي أن يؤديه، وهي أنه يكون مخلصاً لثراث محمد  
جعفر أبو التمن والشيخ محمود.

ومع ظهور الفكر التقدمي على الساحة اتخذت  
الأخوة العربية - الكردية بعداً أعمق حين تحول  
النضال المشترك للشعبين الى واحد من أهم عناصر  
الحركة الوطنية العراقية، مما تجسد في أيام الوثبة

نمطية هذه التصورات الذهنية التي يحملونها عن  
بعضهم؟

العلاقات بين العرب والكرد كانت دوماً علاقات  
متناحية. لا أقول ذلك جزافاً أو بدوافع عاطفية،  
بل على أساس شواهد تاريخية محددة. فبعد أن  
فقد الكرد الأوائل حكم أنفسهم بأنفسهم، وتقلص  
دورهم الحضاري في ظل الدول التي توالى حكمها على  
كردستان على أثر سقوط الدول والإمارات الكردية  
القديمة الواحدة تلو الأخرى، كان أمراً طبيعياً أن  
يرحب الكرد بالإسلام باعتبار ذلك وسيلة للانتقال  
الى وضع أفضل مما كانوا فيه. ولقد دشّن هذا الواقع  
أول احتكاك مباشر وواسع للكرد وكردستان بالعرب  
- حملة راية الدين الجديد- ولم يمس الإسلام الكيان  
القومي للكرد داخل وطنهم، بل انه ساعد على تعزيز  
ذلك الكيان بوجه الشعوب والأنظمة غير الإسلامية  
المتاخمة لكردستان، لا سيما في طرفها الشمالي. ولقد  
احتفظ الكورد بخصائصهم القومية، وبلغتهم في ظل  
الإسلام وحضارته على الرغم من تحولهم الى عنصر  
فاعل بالنسبة لكليهما. وتعززت هذه العلاقات أكثر في  
أواخر العهد العثماني، ولا سيما بعد انتقال السلطة  
الى الاتحاديين المتعصبين الذين عادوا العرب والكورد  
على حد سواء. فحسب الوثائق الروسية الخاصة أجرى  
الشيخ محمود اتصالات خاصة مع شريف مكة، حسين  
وأولاده، مقترحاً عليهم التعاون في نضال الطرفين  
ضد الاتحاديين، بأن بعث إليهم رسائل عديدة بهذا  
الخصوص، وقعت إحداها بيد المسؤولين العثمانيين.  
وعلى أديم الشعبية اختلطت دماء العرب والكورد في  
نيسان ١٩١٥ أثناء تصديهم للجيش البريطاني الغازية،  
فمنح بسطاء الفرات الأوسط الكورد ثلاث الجنة في

متمايضة إلى حد كبير عن مجتمع كردستان. ما تأثير هذا الانقسام الجغرافي على الهوية التاريخية للشخصية الكردية مستقبلاً؟

كنت أتمنى دوماً أن يكون للكورد والعرب دوماً ، كما لليهود لوبيهم الخاص في الغرب الذي يتمتع بتأثير مباشر على سير الأحداث في كل مكان. كان الشهيد الدكتور (عبد الرحمن قاسم) سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني، يولي هذا الموضوع اهتماماً استثنائياً إدراكاً منه لأهميته، وحقق في مضماره مكاسب جديدة خدمت القضية الكردية. فقد قطعت علاقات قاسم الودية بعدد كبير من كبار الساسة والصحفيين الأوربيين شوطاً بعيداً ، بحيث عندما استشهد في فيينا نقل جثمانه خصيصاً الى باريس ليدفن هناك في مقبرة الاشتراكيين في تشييع مهيب حضره عدد كبير من أقطاب اليسار المعروفين. وقد أدى الوجود الكردي الملموس، خصوصاً في فرنسا وألمانيا، دوراً متميزاً في جلب انتباه العالم المتمدن الى مأساة الكرد. من هذه الزاوية يفترض تقويم وجود الجالية الكردية في الأقطار الأوربية. وأرى أن ما هو ايجابي في هذه الظاهرة أكثر بكثير مما هو سلبي. فقد تحول معظم هؤلاء الى مصدر رزق لأفراد أسرهم في الوطن الأم، فضلاً عن ظاهرة التزاوج فيما بينهم، أو إقبالهم على الزواج من قريباتهم في كردستان التي تؤشر حرصهم على هويتهم القومية وتمسكهم بتقاليدهم الخاصة. ومن المعروف أن لدى الجالية الكردية في أوروبا تنظيماتها وصحافتها الخاصة بها، وهي تولي أعيادها وتقاليدها الموروثة كل ما يستحق من اهتمام، وتتابع القنوات الفضائية الكردية أكثر من غيرها. وشخصياً أحفظ بعشرات

عام ١٩٤٨ وانتفاضة ١٩٥٢ وحركة الاحتجاج ضد العدوان الثلاثي على مصر. أتذكر شخصياً حتى اليوم الهوسه التي كنا نردها نحن الطلبة العرب والكرد معاً في ساحة دار المعلمين العالية، وفي شوارع الوزيرية وباحة السفارة المصرية: ((مصر الحرة ما نبيعها، عشر سنين نحارب بيها)).

هذا يعني، على الخيرين أن يبذلوا كل ما في وسعهم من اجل إحياء هذا التراث السياسي الجليل بعد أن امتدت إليه يد التخريب والتحريف في ظل النظام السابق الذي زرع بذور التفرقة والشقاق والتعصب الأعمى بصورة منهجية على مدى خمسة وثلاثين عاماً، وأصبح الكرد الضحية الأولى لمثل هذه السياسة الخرفاء لأنها جعلت وجودهم القومي، وأرض أجدادهم أمام خطر محقق حقيقي غداً معه كل ما هو كردي مرفوضاً لا في نظر المتعصبين وحدهم، بل وحتى في نظر قطاع من بسطاء الناس بسبب وعيهم المتدني، أو بدوافع مصلحة ضيقة، مما أصاب الوحدة الوطنية في الصميم، وجريرة ذلك تضاهي جريرة القبور الجماعية دون ريب. مع ذلك علينا أن نكون متفائلين ونؤمن بالمستقبل. ان جميع زملائي وأخواني الكثيرين من العرب والكرد يفكرون مثلما أفكر، وفي ذلك مبعث تفاؤلي دون أن أنسى أن الساحة بدأت تشهد ظواهر خطيرة للغاية تمس الكرد وكرامتهم في الصميم، وهي غريبة عن طبيعة العراقيين وتاريخ علاقة العرب بالكرد الذين أتمنى أن لا ينفذ صبرهم.

+ هناك رأي يقول أن الجالية الكردية في بعض بلدان شمال أوروبا - النبي ما تزال لها أواصر اجتماعية واقتصادية قوية بموطنها الأم - صارت تشكل بحد ذاتها مجتمعاً كردياً له خصائص حضارية وسلوكية

المصير تحديداً فإنه أصبح شائعاً على نطاق واسع في عصر الثورات البورجوازية الأوروبية الكبرى، ولم يتصد له هناك سوى من كانوا يحملون بقايا الفكر الإقطاعي، وللأسف الشديد يعيد التأريخ هنا نفسه بحذايره لدينا.

مع انتصار أول ثورة اشتراكية في العالم في تشرين الثاني ١٩١٧ ترسخ مبدأ حق تقرير المصير الى حد كبير. مع كل ذلك علينا أن لا ننسى أيضاً أن حق تقرير المصير لا يعني الانفصال بالضرورة، ومن الثابت أن الانفتاح ساعد كثيراً على احتواء النزعات الانفصالية في كل زمان ومكان. علينا أن نواكب العالم المتمدن في توجهاته العقلانية. ان الحدود الدولية في طريقها الى الزوال في أوروبا الغربية منذ أواخر القرن الماضي، وحل اليوم الصفاء والوثام بين الفرنسيين والألمان بعد أن فرقت أنهار من الدم بينهما على مدى قرون طوال، وفي هذا درس بليغ لكل من يريد أن يعتبر، وأن يدرك بأننا دخلنا القرن الواحد والعشرين.

ومع آخر حروف الدكتور كمال في سياحته التأريخية في الأعماق الكردية، وجدنا كلمات شاعر الكرد الخالد ( عبد الله كوران) تصدح في :

أريد من الفتى الكردي أن يضع على كفه  
قلبه الدافئ، المضمع بالإحساس  
ويطوف به بين فرق الشباب  
ويذيع مشاعره في أعطاف العالم  
ولا يتوهم أنه كردي، متأخر، ضئيل  
فقد بزغ في الأفق فجر للإنسان  
يمحو مساحات الصغر والكبر بين الشعوب.

الرسائل من شباب تلك الجالية دون أن أعرفهم، كما أن العديد منهم يتصلون بي هاتفياً في مناسبات مختلفة، ويبعثون لي بمؤلفاتهم، الأمر الذي ينطبق أيضاً على مثقفنا البارز محمد الملا عبد الكريم المدرس، وربما على غيره أيضاً.

+ وأخيراً... تبقى قضية حق الكرد في تقرير مصيرهم بما فيه حق إقامة دولتهم القومية المستقلة، قضية لها بريقها وحيويتها في نفس كل كردي، بل ويذهب غالبية الكرد الى القول أن الكرامة الكردية تظل منقوضة حتى يرفرف علم موحد لدولة كردستان المستقلة. إلا أن هناك رأياً آخر أقل انتشاراً يقول أن الشخصية الكردية يمكن أن تجد فرصتها الإنسانية في تحقيق ذاتها ضمن عراق ديمقراطي تعددي فيدرالي أكثر مما هي عليه في دولة كردية مستقلة ذات طابع قومي عشائري في بنيته السياسية. فما هو موقفكم من وجهتي النظر هاتين؟

يحق للكورد أن يتمتعوا بكل ما يتمتع به غيرهم، وهذا قانون طبيعي ينطبق على جميع شعوب الدنيا دون استثناء إذ ولي عهد ((شعب الله المختار))، ولا اختلاف بين عقلاء الناس في تقويمهم لهذا المبدأ القويم الذي من شأنه أن يساعد كثيراً في حل مشكلات العباد والجماعات والبلدان. فمنذ القرن الرابع عشر كان يوجد نظام في إنجلترا ينطبق على الجميع اسمه ((قانون العدالة أو المساواة)) Equity. وبعد مرور أكثر من ستة قرون على ذلك لا يقر الظالميون المتخلفون مثل ذلك الحق للكورد. أما حق تقرير